أسرار التّقديم والتّأخير عند أبي السعود في تفسيره "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"

الدكتور محمد ذاكر حسين
محاضر بكلية أصول الدين
جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية
بروناي دار السلام
muhzakirhusain@gmail.com

الملخّص

يُعَدُّ التّقديم والتّأخير من أهم مباحث إعجاز القرآن الكريم؛ حيث إنّ كلّ لفظ فيه جاء بشكل مميز، وكلّ تغيير في هذا الترتيب يصبح خللا واضحا في المعنى، ومع كثرة أسرار التقديم والتأخير ولطائفه، لم يهتم به كثير من المفسرين و لم يبيّنوا ما له من أسرار في الكلام؛ فقد كان جلّ عنايتهم في شرح ما قدموه أن يقولوا: إن التقديم والتأخير لضرب من العناية والاهتمام، ومن أجل هذا كان بعض العلماء يلوم على من هوّن أمر التقديم، وصغّر شأنه؛ وذلك لظنهم أنه يكفي أن يقال في كل شيء قدّم: إنه مقدم للعناية به، ولأن ذكره أهم. فقد بين أبو السعود إعجاز القرآن وطبقه؛ لا سيما التقديم والتأخير في تفسيره المسمى "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، وهو كتاب مشهور باهتمام مؤلفه بالناحية البلاغية في القرآن الكريم. وهذا البحث يتناول أسرار التقديم والتأخير في تفسير أبي السعود، وذلك من خلال المنهج الاستقرائي؛ حيث يتم استقراء أسراره في تفسير، والمنهج المقارن، وذلك للمقارنة بين كل ما ذكر من آراء في أسرار التقديم والتأخير بغيره من الكتب التفسيرية. وفي نهاية هذا البحث جاءت النتائج، والتي من أهمها: الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، والتخصيص، والتقديم لكونه أدخل في المدح، والإيذان بالمساواة، وتقديم الأسبق في الوجود، وتقديم الأفضل، وتقديم طريق تلقي الوحي، فضلا عن كون أسرار التقديم والتأخير في تفسير أبي السعود امتدادا لمنهج عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم في كتابه "دلائل الإعجاز"، وتفرد أبي السعود على الزمخشري، والرازي، وأبي حيان، وغيرهم من المفسرين الذين سبقوه في كثير من المباحث في أسرار التقديم والتأخير في القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: التقديم والتأخير– السرّ البلاغي في الكلام– القرآن الكريم– أبو السعود

SECRETS OF WORDS MENTIONED IN THE BEGINNING OR LATE ACCORDING TO ’ABU AL-SA‘ŪD IN HIS INTERPRETATION: "GUIDANCE OF A SOUND MIND TO THE MERITS OF THE HOLY BOOK"

Abstract

This study aims to search for the meaning of words mentioned in the beginning *“Taqdim”* or late “*Ta’khir*”, then apply it in the interpretation of Abu Al-Sa‘ūd called “Guidance of a sound mind to the merits of the Noble Book”. It is a famous book, because of its author’s interest in the rhetorical aspect of the Noble Qur’an, and its comparison with the other books of interpretation. This study reached many rhetorical secrets of words mentioned in the beginning or late by ’Abu Al-Sa‘ūd. Secrets of words mentioned in the beginning or late in the interpretation of ’Abu Al-Sa‘ūd are considered as an extension of ‘Abd al-Qāhir al-Jurjānī’s approach to the theory of authoring in his book “*Evidences of Miracle*s”. ’Abu Al-Sa‘ūd has a unique style among the other interpreters such as al-Zamakhsharī, al-Rāzī and ’Abu Ḥayyān who preceded him in many concepts of the secrets of the words mentioned in the beginning or late in the Holy Quran.

Keywords: the beginning *“Taqdim”* - late “*Ta’khir*”- rhetorical secrets - the Holy Quran - Abu Al-Sa‘ūd

المقدمة

قد اهتم النحاة، والبلاغيون، والمفسرون بظاهرة التقديم والتأخير، وأولوها جلّ عنايتهم، وكان سيبويه صاحب الريادة في الوقوف عليه؛ حيث ذكر أن التقديم والتأخير لضرب من العناية والاهتمام[1]، أما عبد القاهر الجرجاني فقد ذكر أهميته، وقرر قواعده، وبينها أفضل بيان، فهو رائد في تأصيله، وتفصيله؛ فقد ذكر أهمية التقديم والتأخير؛ حيث قال: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية،

[1] سيبويه، عمرو بن عثمان. (1408هـ/1988م). **الكتاب**. عبد السلام محمد هارون (محقق).ط3. القاهرة: مكتبة الخانجي. ج1. ص56.

ولا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن أقدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"[2].

ويرى ابن الزملكاني أن من أهمل معرفة فنّ التقديم والتأخير، وضبطه "فقد بعد عن التحقيق شأوه، وضعف عن إدراك المعنى الدقيق رأيه، وأغفل أصلا عظيما من علم البيان، وجهل جملا من آي القرآن"[3].

والتقديم والتأخير لغرض أسلوبي أو بلاغي يجعل الكلام أكثر تأثيرا وجمالا؛ لأنه ينقل المعاني إلى المخاطبين على وفق ترتيبها في ذهن المتكلم تبعا لدرجة أهميتها عنده، فيكون التعبير صورة صادقة لإحساس المتكلم ومقصده من الكلام[4].

وقد ميّز عبد القاهر الجرجاني بين وجهين للتقديم والتأخير؛ حيث قال: "تقديم يقال إنه على نيّة التأخير، وذلك في كل شيء أقررته، مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدّمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل...وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعله بابا غير بابه وإعرابا غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرا له، فتقدم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا"[5].

وكان يلوم على من سبقه للتفريط في فهم الأهمية الكبيرة للتقديم والتأخير حين هوّنوا أمره، وصغروا شأنه؛ وذلك لظنهم أنه يكفي أن يقال في كل شيء قدّم: إنه مقدم للعناية به، ولأن ذكره أهم، في حين يرى عبد القاهر الجرجاني أن للتقديم والتأخير آثارا، وأسرارا بلاغية تتجدد، وتتحدد مع كل سياق يرد فيه، فهو يدعو إلى تفصيل ما أجمله الآخرون؛ فيقول: "واعلمْ أنّا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئا يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام. قال صاحبُ "الكتاب" وهو يذكر الفاعل والمفعول: كأنّهم يقدمون الذي بيانه أهمّ لهم، وهم بشأنه أعْنى، وإن كانا جميعا يهمّانهم ويعنيانهم"[6]. ويضيف: "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: إنه قدم للعناية، ولأنّ ذكره أهمّ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العنايةُ؟ وبمَ كان أهمَّ؟

---

[2]الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن. (1995م). **دلائل الإعجاز**. بيروت: دار الكتاب العربي.ص96.

[3]الزملكاني، عبد الواحد بن عبد الكريم. (1383هـ/ 1963م). **التبيان في علم البيان المطلع على إعجار القرآن**. أحمد مطلوب وخديجة الحديثي (محققان). بغداد: مطبعة العاني. ص105.

[4]لاشين، عبد الفتاح. (1402هـ/1983م). **من أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة)**.د. ط. الرياض: دار المريخ. ص194.

[5]الجرجاني. **دلائل الإعجاز**. المرجع السابق. ص96.

[6]الجرجاني. **دلائل الإعجاز**. المرجع السابق .ص97.

ولتخيّلهم ذلك، قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهوّنوا الخطب فيه، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبّعه والنظر فيه ضربا من التكلّف، و لم تر ظنّا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه"[7].

ومن أبرز المفسرين الذين اهتموا بشرح أسرار التقديم والتأخير في القرآن أبو السعود العمادي[8] في كتابه "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، وقد عنى بالجانب البلاغي في تفسيره للقرآن الكريم، وبينه بما يفرح القارئ الباحث الفطن.

قال محمد حسين الذهبي: "والحق أن هذا التفسير غاية في بابه، ونهاية في حسن الصوغ وجمال التعبير، كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية، بما لم يسبقه أحد إليه، ومن أجل ذلك ذاعت شهرة هذا التفسير بين أهل العلم، وشهد له كثير من العلماء بأنه خير ما كُتب في التفسير"[9]. والمهتمون بهذا العلم من الباحثين في التفسير البياني للقرآن الكريم يعرفون أن هذا الكتاب من أحسن المراجع، وأعمقه في بلاغة القرآن نظرًا، ومن أدقّها فيه ملحظا.

ذكر أبو السعود أسرار التقديم والتأخير في تفسيره "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، منها:

1. الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[النحل: 10]. قال أبو السعود: "وتأخره عن المجرور لما مرّ مرارا، من أن المقصود هو الإخبار بأنه أنزل من السماء شيئا هو الماء، لا أنه أنزله من السماء. والسر فيه ما سلف من أن عند تأخير ما حقه التقديم يبقى الذهن مترقبا له، مشتاقا إليه، فيتمكن لديه عند وروده عليه فضل تمكن"[10].

ذكر أبو السعود أن تقديم المتعلق ﴿من السماء﴾ على المفعول ﴿ماء﴾ للتشويق إلى المؤخر؛ لأن ما حقه التقديم إذا أُخر تبقى النفس متشوقة إلى معرفة ما أُخر، وهو شيء عظيم المنفعة الذي عُبر بلفظ الماء. وقد يكون التقديم أيضا للاهتمام بالمقدم والاعتناء به؛ لأن الأهم في الآية ليس مجرد إنزال الماء، وإنما الأهم إنزال الماء من السماء، فقال منير محمود المسيري: "تقدم الجار والمجرور ﴿من السماء﴾ على المفعول به

---

[7] الجرجاني. **دلائل الإعجاز**. المرجع السابق. ص98.

[8] هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، الإمام العلامة، ولد سنة ثمان وتسعين وثمانمائة بقرية قريبة من القسطنطينية، مفتي الديار الرومية، وتوفي سنة اثنين وخمسين وتسعمائة. ينظر: ابن العماد، عبد الحي بن أحمد. (1414 هـ / 1993 م). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. محمود الأرناؤوط (المحقق).بيروت. دار ابن كثير. ج 10. ص 548.

[9] الذهبي. محمد حسين. (2005م). **التفسير والمفسرون**. القاهرة: دار الحديث. ج 1. ص 296.

[10] أبو السعود العمادي، محمد بن محمد. (د.ت). **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**. د. ط. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج5. ص100.

الصريح ﴿ماء﴾ لبيان عجيب القدرة، وإلفات الذهن إلى حكمة الصّنعة ليتمكن في النفس حسن التفكر، وعظيم التبصر بأحوال هذا الماء، كيف أنشئ في السماء، ثم حمل على الريح، ثم صرف إلى حيث أراد الله، ثم أسقطه، ثم أنزله بحساب معلوم وميزان محكوم، كما فيه بيان ذكر النعمة حيث النظر في هذه القدرة التي أنزلت الماء من مكان لا يستطيع أحد أن ينزله منه مهما أوتي من قدرة، فيتولد في النفس شعور تقابلي بمدى العجز، والضعف الذي يمليه أيضا المد المتصل الذي في كلمة السماء، والذي يضيف بعدا زمانيًّا آخر إضافة إلى البعد النفسي"[11].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: 66]. قال أبو السعود: "وهي متعلقة بنسقيكم، وتقديمه على المفعول لما مر مرارا من أن تقديم ما حقه التأخير يبعث للنفس شوقا إلى المؤخر موجبا لفضل تمكينه عند وروده عليها؛ لا سيما إذا كان المقدم متضمّنا لوصف منافٍ لوصف المؤخر كالذي نحن فيه، فإن بين وصفي المقدم والمؤخر تنافيًا، وتنائيًا بحيث لا يتراءى ناراهما، فإن ذلك مما يزيد الشوق، والاستشراف إلى المؤخر كما في قوله – تعالى – ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: 80] أو حال من ﴿لبنا﴾ قدم عليه لتنكيره، والتنبيه على أنه موضع العبرة "[12].

ذكر أبو السعود أن الجار والمجرور في: ﴿من بين فرث﴾ متعلقان بقوله: ﴿نسقيكم﴾، وكان الأصل أن يقال: نسقيكم لبنا من بين فرث ودم، وإنما قُدم الجار والمجرور على المفعول الصريح للتشويق إلى المؤخر؛ لأن ما حقه التقديم إذا أُخّر تبقى النفس متشوقة إلى معرفة ما أُخّر، وهو شيء عجيب الشأن من خروج اللبن الأبيض الصافي اللذيذ من بين الفرث والدم.

وذكر أبو السعود احتمالًا آخر للجار والمجرور فقال: "أو حال من ﴿لبنا﴾ أي إن قوله: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ متعلق بمحذوف حال من ﴿لبنا﴾؛ لأن أصل الكلام: نسقيكم لبنا من بين فرث، ونعت النكرة إذا قُدّم عليها أعرب حالا منها. وإنما قُدّم الجار والمجرور للاهتمام بالمقدم على أنه موضع العبرة.

وقال عبد الكريم الخطيب: "وفى تقديم قوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ على قوله سبحانه:﴿لَبَنًا﴾ الذي هو مطلوب للفعل ﴿نسقيكم﴾ في هذا الِتفات إلى الفرث، والدم، وما يخرج من بينهما، وهو اللبن الخالص السائغ للشاربين، فإنه قبل أن يقع لنظر الناظر هذا اللبن، يلتقي نظره أولا بالفرث والدم، الذي لا يتصور أن يخرج منهما إلا ما يشاكلهما، فإذا رأى بعد هذا أن ذلك اللبن الخالص السائغ يخرج من بين

[11] المسيري، منير محمود.(1426هـ/2005م). **دلالات التقديم والتأخير في القرن الكريم**. القاهرة: مكتبة وهبة. ص454 – 455.

[12] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج5. ص 125.

هذين الشيئين: الفرث، والدم عجب لذلك كلّ العجب، وحمله ذلك على أن يقف عند هذه الظاهرة وقوفًا طويلًا، يشهد فيها لمحات من قدرة اللّه، وعلمه، وحكمته"[13].

2. التخصيص

قوله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16]. قال أبو السعود: "وتقديم النجم وإقحام الضمير للتخصيص؛ كأنه قيل: وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون؛ فالاعتبار بذلك، والشكر عليه ألزم لهم، وأوجب عليهم"[14].

قدّم ﴿بِالنَّجْمِ﴾ على ﴿يَهْتَدُونَ﴾ للتخصيص، وهذا وارد على أن يكون الضمير لقريش خاصة؛ لأنهم كانوا أصحاب رحلة سفر للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم في سفرهم.

وذكر هذا الوجه الزمخشري[15]، وأبو حيان[16]، والبقاعي[17]، ويؤكد ذلك قول الرازي: "قلنا: إن قريشًا كانت تكثر أسفارها لطلب المال، ومن كثرت أسفاره كان علمه بالمنافع الحاصلة من الاهتداء بالنجوم أكثر وأتم، فقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إشارة إلى قريش للسبب الذي ذكرناه"[18].

وزاد الألوسي وجها آخر في الضمير، والتقديم؛ حيث قال: "والضمير يحتمل أن يكون عامًّا لكل سالك في البر، والبحر من المخاطبين فيما تقدم، وتغيير التعبير للالتفات، وتقديم الجار والمجرور للفاصلة، والضمير المنفصل للتقوى"[19]. أي أن الضمير عام يشمل الكل، وليس خاصا لقريش، ويكون التقديم للفاصلة.

وذكر ابن عاشور وجها آخر في الضمير، والتقديم؛ حيث قال: "وأخصّ من يهتدي بها البحّارة؛ لأنهم لا يستطيعون الإرساء في كل ليلة، فهم مضطرّون إلى السير ليلًا، وهي هداية عظيمة في وقت ارتباك الطريق على السائر، ولذلك قدم المتعلق في قوله تعالى:﴿وبالنجم﴾ تقديمًا يفيد الاهتمام، وكذلك بالمسند

---

[13]عبد الكريم الخطيب. (د.ت). **التفسير القرآني للقرآن**. د. ط. القاهرة: دار الفكر العربي. ج7. ص321.

[14]أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج5. ص104.

[15]ينظر: الزمخشري، محمود بن عمر. (1407هـ). **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. ط3. بيروت: دار الكتاب العربي. ج2، ص599.

[16]ينظر: أبو حيان، محمد بن يوسف. (1422هـ/2001م). **البحر المحيط**. بيروت: دار الكتب العلمية. ج5. ص467.

[17]ينظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر. (1415هـ/1995م). **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. بيروت: دار الكتب العلمية. ج4. ص255.

[18]الرازي، محمد بن عمر. (1421هـ/2000م). **مفاتيح الغيب**. بيروت: دار الكتب العلمية.ج20. ص10.

[19]الألوسي، محمد بن عبد الله. (1415هـ) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. بيروت: دار الكتب العلمية. ج7. ص359.

الفعلي في قوله تعالى: ﴿هم يهتدون﴾. وعدل عن الخطاب إلى الغيبة التفاتًا يومئ إلى فريق خاص، وهم السيّارة، والملّاحون؛ فإن هدايتهم بهذه النجوم لا غير"[20]. أي أن الضمير للسيّارة، والملّاحين، ويكون التقديم للاهتمام.

وقال منير محمود المسيري: "تقديم الجار والمجرور ﴿وبالنجم﴾ للاهتمام ببيان هذه النعمة، وليس للفاصلة كما ادعى القاسمي، وقد تكلمنا عن ذلك، ورددنا على من ادّعى بأن الترتيب لمراعاة الفواصل، ولسنا مع القاسمي في رفض دعوى الزمخشري أن تقديم الضمير ﴿هم﴾ للتخصيص بقوم هم قريش؛ لكونهم أصحاب رحلة سفر؛ لأن الخطاب في الآيات السابقة عامٌّ، فكذا يكون في لاحقها "[21]. فهذا الخصوص بهم في الخطاب لا يفيد الحصر كما فهمه القاسمي، بل كما قال الزمخشري: "وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا"[22] فغيرهم داخل معهم في الاهتداء بالنجوم، ولكن ليس كمثلهم في كثرة الاعتماد عليه والاهتداء به"[23].

قلت: إن التقديم يكون للاهتمام ببيان هذه النعمة من الاهتداء بالنجم، ويكون أيضا للتخصيص بقريش؛ لأنهم كانوا أصحاب رحلة سفر للتجارة، وغيرهم داخل معهم؛ ولكن ليس كمثلهم في كثرة الاهتداء به.

3. التقديم لكونه أدخل في المدح

قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: 2]. قال أبو السعود: "وأُخرت الطريقة الثانية؛ لما أن الإشارة إلى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل في المدح؛ كيلا يتوهّم من أوّل الأمر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصة به من غير اشتماله على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة"[24].

هذه الآية في الحديث عن عظمة شأن القرآن، فتقديم الكتاب على القرآن في هذه الآية لكونه أدخل في المدح، وذلك لدفع توهم غير المراد؛ أي حتى لا يتوهم متوهم أن القرآن اتصف بصفات خاصة من غير اشتماله على أوصاف كمال سائر الكتب السماوية الأخرى.

---

[20] ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور. (1997م). **التحرير والتنوير**. د. ط. تونس:دار سحنون للنشر والتوزيع. ج14، ص122.

[21] القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد.(1418هـ). **محاسن التأويل**. بيروت: دار الكتب العلمية. ج6، ص 360.

[22] الزمخشري. **الكشاف**. مرجع سابق. ج3. ص429.

[23] المسيري. **دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم**. مرجع سابق. ص 463-464.

[24] أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج5. ص63.

وذكر البقاعي أن التقديم لأنه المقصود الغالب في السورة؛ حيث قال: "ولما كان الغالب في هذه السورة القطع الذي هو من لوازم الكتاب قدمه، وذلك أنه قطع بأمر الأجل، والملائكة، وحفظ الكتاب، والرمي بالشهب، وكفاية المستهزئين"[25].

وذكر ابن عاشور سر التقديم وهو أن الآية في سياق الحديث عن توبيخ للكافرين، وتحسير لهم؛ حيث قال: "فأما تقديم الكتاب على القرآن في الذكر؛ فلأن سياق الكلام توبيخ الكافرين وتهديدهم؛ بأنه سيجيء وقت يتمنّون فيه أن لو كانوا مؤمنين، فلما كان الكلام موجّهًا إلى المنكرِين ناسب أن يستحضر المنزّل على محمد -صلى الله عليه وسلم- بعنوانه الأعم وهو كونه كتابًا؛ لأنهم حين جادلوا ما جادلوا إلا في كتاب فقالوا: ﴿لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: 157]، ولأنهم يعرفون ما عند الأمم الآخرين بعنوان كتاب، ويعرفونهم بعنوان أهل الكتاب"[26].

قلت: كل هذه التوجيهات التي ذكرها المفسرون في تقديم الكتاب على القرآن يناسب نظم القرآن ويلائمه.

الوجه الأول: لكون القرآن في غاية الكمال، واشتماله على كل ما اشتملت عليه الكتب السماوية من صفة الكمال.

الوجه الثاني: التقديم لوجه مناسبة سياق السورة؛ فالغالب المقصود في هذه السورة هو الحديث عن القطع الذي هو من لوازم الكتاب. فتتحدث السورة عن قطع بأمر الأجل، والملائكة، وحفظ الكتاب، والرمي بالشهب، وكفاية المستهزئين، وغير ذلك من لوازم الكتاب.

الوجه الثالث: التقديم؛ لأن سياق المقطع في الحديث عن توبيخ الكافرين، وتخسيرهم، وتهديدهم؛ بأنهم سوف يتمنون في الآخرة أن لو كانوا عائدين في الدنيا مؤمنين. فقال تعالى بعد هذه الآية : ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[الحجر: 2-3].

4. الإيذان بالمساواة، وتقديم الأسبق في الوجود

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: 77]. قال أبو السعود: "وإنما قدم الإسرار على الإعلان؛ للإيذان بافتضاحهم، ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر، والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات؛ كأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع كونهما في الحقيقة على السوية، فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها؛ بل وجود كل شيء في نفسه علم بالنسبة إليه

[25] البقاعي. **نظم الدرر.** مرجع سابق. ج4. ص205.

[26] ابن عاشور. **التحرير والتنوير.** مرجع سابق. ج14. ص9.

تعالى... ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن؛ إذ ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر في القلب، يتعلق به الإسرار غالبا، فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية"[27].

ذكر أبو السعود وجهين في تقديم السر على العلن؛ الوجه الأول: للإيذان بافتضاحهم، ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر، والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات. وهذا ملائم لسياق الآيات، والضمير يعود على الموبخين من اليهود الذي قال الله فيهم قبل هذه الآية: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 76].وقيل على المنافقين، والظاهر حمله على العموم[28].

قال محمد سيد طنطاوي في بيان سياق هذه الآية: "فالآية الكريمة فيها توبيخ، وتجهيل لليهود الذين عاتبوا المنافقين منهم على تحديث المؤمنين بما في توْراتهم مما يؤيّد صدق النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين إيمانًا صادقًا بإحاطة علمه بسرهم، وعلانيتهم لما نهوا إخوانهم عن تحديث المؤمنين بما فيها؛ فإن ما فيها من صفات للنبي -صلى الله عليه وسلم- من الحقائق التي أمرهم الله ببيانها، ونهاهم عن كتمانها"[29].

والوجه الثاني: تقديم الأسبق في الوجود؛ وهو باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن؛ إذ ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر في القلب يتعلق به الإسرار غالبا، فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية. وذكر الألوسي هذين الوجهين في سر التقديم والتأخير[30].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: 19]. قال أبو السعود: "وتقديم السر على العلن لما ذكرناه في سورة البقرة وسورة هود من تحقيق المساواة بين علمية المتعلقين بهما على أبلغ وجه كان علمه تعالى بالسر أقدم منه بالعلن، أو لأن كل شيء يعلن فهو قبل ذلك مضمر في القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية"[31].

ذكر أبو السعود وجهين في تقديم ﴿ما تُسِرُّونَ﴾ على ﴿مَا تُعْلِنُونَ﴾، الأول: للإيذان بالمساواة بين العلن والسر، والمخاطب في هذه الآية هم المخاطبون بقوله تعالى: ﴿أفلا تذكرون﴾ [النحل: 17]. وفيه

---

[27]أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج1. ص 119.

[28]الألوسي. **روح المعاني**. مرجع سابق. ج 1. ص 377.

[29]طنطاوي، محمد سيد. (1993م). **تفسير الوسيط للقرآن الكريم**. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. ج1، ص181.

[30]الألوسي. **روح المعاني**. مرجع سابق. ج1. ص377.

[31]أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج4. ص54.

تعريض بالتهديد، والوعيد بأن الله محاسبهم على كفرهم؛ فإذا كان الله عليما بما يضمره الكفار من العقائد، والأعمال كان عليما بما يظهرونه من باب أولى، وهذا أبلغ في الوعيد والتهديد عليهم، والثاني: يكون التقديم؛ لأن السر أسبق في الوجود من العلن؛ فكل شيء يعلن فهو قبل ذلك مضمر في القلب.

وذكر الألوسي هذين الوجهين[32].

5. تقديم الأفضل

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 75].قال أبو السعود: "وتقديم السر على الجهر للإيذان بفضله عليه"[33].

ذكر أبو السعود سر تقديم ﴿سِرًّا﴾ على ﴿جَهْرًا﴾، وذلك لأفضلية المقدم على المؤخر؛ فالإنفاق في السرّ أفضل، وأعلى درجة من الإنفاق في الجهر؛ لأن ذلك أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، وأقل إحراجًا للفقراء. وذكر هذا الوجه الألوسي[34].

6. تقديم طريق تلقي الوحي

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شيئا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78]. قال أبو السعود: "وتقديم السمع على البصر لما أنه طريق تلقي الوحي، أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر"[35].

ذكر أبو السعود وجهين في تقديم ﴿السَّمْعَ﴾ على ﴿الأَبْصَارَ﴾. الوجه الأول: أن السمع وسيلة للوحي، والوجه الثاني: أن إدراك السمع أقدم من إدراك البصر.

وقال الرازي في شأن التقديم: "من الناس من قال: السمع أفضل من البصر؛ لأن الله – تعالى – حين ذكرهما قدم السمع على البصر، والتقديم دليل على التفضيل، ولأن السمع شرط النبوة بخلاف البصر، ولذلك ما بعث الله رسولًا أصمّ، وقد كان فيهم من كان مبتلي بالعمى، ولأنه بالسمع تصل نتائج عقول

---

[32]ينظر: الألوسي. **روح المعاني**. مرجع سابق. ج7. ص488.

[33]أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج4. ص83.

[34]ينظر: الألوسي. **روح المعاني**. مرجع سابق. ج 7. ص 584.

[35]أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج4. ص86.

البعض إلى البعض، فالسمع كأنه سبب لاستكمال العقل بالمعارف، والبصر لا يوقفك إلا على المحسوسات، ولأن السمع متصرف في الجهات الست بخلاف البصر، ولأن السمع متى بطل بطل النطق، والبصر إذا بطل لم يبطل النطق. ومنهم من قدم البصر؛ لأن آلة القوة الباصرة أشرف، ولأن متعلق القوة الباصرة هو النور، ومتعلق القوة السامعة الريح"[36].

وردّ منير محمود المسيري أفضلية السمع على البصر فقال: "وقولهم غير مسلم له لجملة من الأسباب: أولا: السمع وسيلة للوحي تلقيا للرسول، وسماعا للمرسل إليهم...أما ما ذكروه من أن السمع شرط للنبوة؛ فذلك الشرط يشاركه غيره من انتفاء صفات العيب الخلقي كلها...ثانيًا: قد يكون التقديم هنا من باب سبق الوجود؛ أي أن الأذن تخلقت قبل العين أو سبق إدراك ووظيفة...ثالثًا: لقد ذكر القرآن العين قبل الأذن في قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ [المائدة: 45]...رابعًا: أما كون السمع تصل به نتائج العقول بعضها إلى بعض فصحيح؛ ولكن بالقراءة، والنظر أيضا تصل نتائج العقول بعضها إلى بعض...خامسًا: الثابت عند أهل السنة والجماعة أن أعظم نعيم أهل الجنة هو النظر إلى ربهم في الجنة...سادسًا: إنّ فقد البصر أشد إيلامًا من فقد السمع؛ ولهذا بدئ به في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[الإسراء: 97].."[37].

وقال فاضل السامرائي جاء تقديم السمع على البصر؛ لأنّ السمع وسيلة للوحي، وهو أفضل من البصر؛ حيث قال: "والظاهر أن السمع بالنسبة إلى تلقي الرسالة أفضل من البصر، ففاقد البصر يستطيع أن يفهم، ويعي مقاصد الرسالة؛ فإن مهمة الرسل التبليغ عن الله. والأعمى يمكن تبليغه بها، وتيسير استيعابه لها كالبصير، غير أن فاقد السمع لا يمكن تبليغه بسهولة. فالأصم أنأى عن الفهم من الأعمى؛ ولذا كان العميان علماء كبار بخلاف الصم. فلكون متعلق ذلك التبليغ كان تقديم السمع أولى"[38].

وإدراك السمع أسبق من إدراك البصر، فقال منير محمود المسيري: " ...حتى إن الجنين ليسمع الأصوات وهو في رحم أمه، وكذلك بعد الولادة لا يستطيع المولود أن يبصر شيئا عدة أيام بينما يسمع الأصوات التي من حوله..."[39].

---

[36] الرازي. **مفاتيح الغيب**. مرجع سابق. ج2. ص59.

[37] المسيري. **دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم**. مرجع سابق. ص181 - 184.

[38] السامرائي، فاضل صالح. (1427هـ/2006م). **التعبير القرآني**. ط4.الأردن: دار عمار.ص55.

[39] المسيري. **دلالات التقديم والتأخير**. مرجع سابق. ص181.

إذا نظرنا إلى هذه الآية ضمن ورودها في نظم القرآن وجدنا أنها في سياق الحديث عن بعض نعم الله- تعالى – على الناس. وهذا يلائم تقديم السمع على البصر، فالسمع بالنسبة إلى تلقي الرسالة أفضل من البصر، وإدراك السمع أسبق من إدراك البصر.

7. تقديم الأسبق في الوجود

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12]. قال أبو السعود: "وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودي؛ إذ منه ينسلخ النهار، وفيه تظهر غرر الشهور، ولو أن الليلة أضيفت إلى ما قبلها من النهار، لكانت من شهر وصاحبها من شهر آخر، ولترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة؛ أي جعلنا الملوين بهيآتهما، وتعاقبهما، واختلافهما في الطول، والقصر على وتيرة عجيبة يحار في فهمها العقول آيتين تدلان على أن لهما صانعا حكيما قادرا عليمًا، وتهديان إلى ما هدى إليه القرآن الكريم من ملة الإسلام، والتوحيد"[40].

ذكر أبو السعود وجهين في تقديم الليل على النهار: الوجه الأول: لسبق وجود الليل عليها، والوجه الثاني: لترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة.

وذكر الوجه الأول الشوكاني، وذكرهما الألوسي وزاد عليهما؛ حيث قال:"ومما يزيد تقديم الليل حسنًا افتتاح السورة بقوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1]"[41].

قلت: سر التقديم الذي ذكره المفسرون يتناسب، ويتلاءم مع الحديث في هذه الآية؛ وهو في الحديث عن التذكير بنعم الله –تعالى – في الدنيا، ودلائل القدرة الإلهية، فيكون التقديم للأسبق في الوجود؛ حيث إن الليل أصلا أسبق من النهار، ومتقدم له في الوجود؛ ولذلك إذا تحدث الله –تعالى– عن الليل والنهار قدم الليل على النهار. ويكون التقديم أيضا لتربيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة، ويحتمل أن يكون التقديم لمناسبة افتتاح السورة، وهي تحدثت عن حادثة الإسراء ليلًا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 17]. قال أبو السعود: "وتقديم الخبير لتقدم متعلّقه من الاعتقادات والنيات التي هي مبادئ الأعمال الظاهرة أو لعمومه؛ حيث يتعلق بغير المبصرات أيضًا"[42].

---

[40]أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج4. ص122.

[41]الألوسي. **روح المعاني**. مرجع سابق. ج8. ص36.

[42]أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج4. ص122.

ذكر أبو السعود أن تقديم الخبير على البصير لتقدم متعلّقه، فالاعتقادات والنيات مقدمة على الأعمال الظاهرة، أو لعمومه لتعلقه بغير المبصرات؛ لأن "الخبير: العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة والظاهرة والخفية. والبصير: العالم بالأمور المبصرة"[43]. وهذا يناسب بيان إهلاك القرون الماضية الكثيرة. وهو في الحديث عن إنذار قريش في تكذيبهم للرسول -صلى الله عليه وسلم -.

قلت: وقد تكرر تقديم الخبير على البصير في القرآن خمس مرات، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 30]، وقوله: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 96]، وقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: 31]، وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27]، فتقديم الخبير على البصير لتقدم متعلّقه، ولأنه أشمل.

8. التقديم لكونه أنسب، ومراعاة المقارنة

وقوله -تعالى-: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112]. قال أبو السعود: "وتقديم الجوع الناشئ مما ذكر من فقدان الرزق على الخوف المترتب على زوال الأمن المقدم فيما تقدم على إتيان الرزق؛ لكونه أنسب بالإذاقة، أو لمراعاة المقارنة بينها وبين إتيان الرّزق"[44].

هذه الآية في الحديث عن جزاء كُفران النّعم في الدنيا، وذكر أبو السعود وجهين في تقديم ﴿الْجُوعِ﴾ على ﴿الْخَوْفِ﴾؛ الوجه الأول: لكونه أنسب بالإذاقة. قال المسيري: "إن تقديم الجوع على الخوف في هذه الآية قد يكون لمناسبة الاستعمال في لفظة ﴿أذاق﴾؛ إذ أنها حقيقة في التذوق الطعامي مجازا في التذوق الأمني، فلهذا قدم ما كون تذوقه حقيقيًّا على ما كان تذوقه مجازيًّا"[45].

والوجه الثاني: لمراعاة المقارنة، وقد ذكر هذا الوجه أبو حيان فقال: "ولما تقدم ذكر الأمن، وإتيان الرزق، قابلهما بالجوع الناشئ عن انقطاع الرزق، وبالخوف. وقدم الجوع ليليَ المتأخر؛ وهو إتيان الرزق، كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: 106]"[46].

---

[43] ابن عاشور. **التحرير والتنوير**. مرجع سابق. ج22. ص310.

[44] أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج4. ص103.

[45] المسيري. **دلالات التقديم والتأخير**. مرجع سابق. ص 468.

[46] أبو حيان. **البحر المحيط**. مرجع سابق. ج5. ص525.

9. تعجيل المضرّة

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: 27]. قال أبو السعود: "وتغيير السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزي على يوم القيامة؛ كما هو المتبادر من تقديم الظرف على الفعل؛ بل لأن الإخبار بجزائهم في الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء أخرويًّا، فتقي النفس مترقبة إلى وروده سائلة عنه بأنه ماذا مع تيقنها بأنه في الآخرة، فسيق الكلام على وجه يؤذن بأن المقصود بالذكر إخزاؤهم، لا كونه يوم القيامة"[47].

ذكر أبو السعود أن تقديم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ على ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ ليس للحصر، كما هو المتبادر في الذهن من تقديم الظرف على الفعل، والمراد به خزيهم يوم القيامة بتوبيخهم ﴿أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ وتعجيل المضرة، فلما أخبر الله –تعالى– عن الكافرين بعذاب الدنيا في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: 26]، فإن النفس سائلة عن عذاب الآخرة مع تيقّنها بأنه فيها، فيكون التقديم إخزاءَهم، وليس مجرد الإخبار بوروده يوم القيامة؛ لأنه متيقّن عندهم.

وعند ابن عاشور وجه آخر فقال: "وتقديم الظرف للاهتمام بيوم القيامة؛ لأنّه يوم الأحوال الأبديّة فما فيه من العذاب مهول للسّامعين"[48]. أي يكون التقديم للاهتمام ببيان شدة عذاب الآخرة، وهو أشد وأعظم من عذاب الدنيا؛ فهو أيام وتمضي، وهو خزي جزئي أمام أناس دون غيرهم، وأما خزي الآخرة فهو على مرأى من الناس كلهم؛ فضلًا على أنه يوم الأحوال الأبديّة فيما فيه من العذاب مهول للسّامعين.

قلت: سر التقديم الذي ذكره أبو السعود وابن عاشور يتناسب ويتلاءم مع نظم القرآن، وهو في الحديث عن جزاء الكافرين في الآخرة. فيكون تقديم ﴿يوم القيامة﴾ على ﴿يخزيهم﴾ إخزاءهم، وتعجيل المضرة عليهم، ويكون التقديم أيضا للاهتمام ببيان شدة عذاب الآخرة.

10. مراعاة السياق

[47] أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج4. ص58.

[48] ابن عاشور. **التحرير والتنوير**. مرجع سابق. ج14. ص136.

وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125]. قال أبو السعود: "وتقديم الضّالين لما أن مساق الكلام لهم"[49].

ذكر أبو السعود أثر تقديم ﴿بِمَنْ ضَلَّ﴾ على ﴿بِالْمُهْتَدِينَ﴾، وذلك لأن الآية في سياق الحديث عن الدعوة إلى الله – تعالى – وهم المقصودون بالدعوة.

ويؤيد ذلك ما بيّنه ابن عاشور؛ حيث قال: "وقُدم العلم بمن ضَلّ لأنه المقصود من التعليل؛ لأن دعوتهم أوكد، والإرشاد إلى اللّين في جانبهم بالموعظة الحسنة، والمجادلة الحسنى أهمّ، ثم أتبع ذلك بالعلم بالمهتدين على وجه التكميل"[50].

وذكر منير محمود المسيري هذا الوجه، وزاد وجها آخر، فقال: "قدم العلم بمن ضل عن سبيله؛ لأنهم هم المقصودون بالدعوة، والصبر عليهم أوكد، وقد يكون التقديم لكونهم أكثر"[51].

قلت: سر التقديم الذي ذكره المفسرون يتناسب مع سياق الآية، وهو في الحديث عن الدعوة إلى الله– تعالى –، فيكون التقديم بالضالين؛ لأن دعوتهم أوكد، والإرشاد إلى اللّين في جانبهم بالموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن أهمّ، ويكون التقديم أيضا لكونهم أكثر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 31]. قال أبو السعود: "وتقديم ضمير الأولاد على المخاطبين على عكس ما وقع في سورة الأنعام[52] للإشعار بأصالتهم في إفاضة الرزق، أو لأن الباعث على القتل هناك الإملاق الناجز؛ ولذلك قيل: من إملاق، وههنا الإملاق المتوقع؛ ولذلك قيل: خشية إملاق؛ فكأنه قيل: نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شيء فيعتريكم ما تخشونه، وإياكم أيضا رزقا إلى رزقكم"[53].

ذكر أبو السعود وجهين في "تقديم ﴿نَرْزُقُهُمْ﴾ على ﴿إِيَّاكُمْ﴾، الوجه الأول: للإشعار بأصالتهم في إفاضة الرزق، والوجه الثاني: مراعاة للسياق، فإن الحديث –هنا– عن النهي عن قتل الأولاد خشية إملاق، والإملاق لم يقع بعد، وأما التقديم في سورة الأنعام، فإن الحديث – هناك — عن النهي عن قتل

---

[49]أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج4. ص110.

[50]ابن عاشور. **التحرير والتنوير**. مرجع سابق. ج14. ص333.

[51]المسيري. **دلالات التقديم والتأخير**. مرجع سابق. ص469.

[52]وهو قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: 151].

[53]أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج4. ص135.

الأولاد بسبب إملاق. وذكر هذا الوجه البقاعي[54]، والألوسي[55]، وابن عاشور[56]، وقال منير محمود المسيري: " تقدم هنا رزق الأبناء على الآباء إشارة إلى أنهم جميعا في الرزق سواء عند الله – تعالى – لا يملك هؤلاء ولا هؤلاء رزقًا لأنفسهم، وإنما يرزقون جميعا من فضل الله – تعالى –"[57].

قلت: تقديم ﴿نَرْزُقُهُمْ﴾ على ﴿إِيَّاكُمْ﴾ في سورة الإسراء على ما ذكره المفسرون يتناسب مع سياق الآية؛ وذلك لأن الخطاب فيها للأغنياء، فهو يخشون الفقر في المستقبل لما يلزمهم من مؤونة أولادهم، فكان أهم شيء عندهم نهيهم عن قتل أولادهم أن يضمن لهم رزق أولادهم، وإن الله هو الذي يرزق الأبناء والآباء.

11. التقديم لإظهار كمال العناية

قوله تعالى: ﴿قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: 2]. قال أبو السعود: "وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية "[58].

ذكر أبو السعود أن تقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه، ولذلك كرر الله – تعالى – الإنذار في قوله: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: 4]، فإن المقام مقام الإنذار للمشركين، ويضاف إلى ذلك تقديم التّخلية على التّحلية.

12. تقديم ما هو ظاهر

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: 20]. قال أبو السعود: "وتقديم احتمال الرّجم على احتمال الإعادة؛ لأن الظاهر من حالهم هو الثّبات على الدين المؤدّي إليه"[59].

ذكر أبو السعود أن تقديم احتمال الرجم على احتمال الإعادة لأن الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين، وهذا ملائم لسياق الحديث عن أصحاب الكهف، فهم ثابتون في دينهم لا يمكنهم الخروج منه.

---

[54]ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**. مرجع سابق. ج11. ص408.

[55]ينظر: الألوسي. **روح المعاني**. مرجع سابق. ج8. ص92.

[56]ينظر: ابن عاشور. **التحرير والتنوير**. مرجع سابق. ج15. ص88.

[57]المسيري. **دلالات التقديم والتأخير**. مرجع سابق. ص473.

[58]أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. مرجع سابق. ج4. ص178.

[59]أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**. المرجع السابق. ج4. ص191.

الخاتمة

تتلخّص نتائج هذا البحث في النقاط التالية:

- اهتم النحاة، والبلاغيون، والمفسرون بظاهرة التقديم والتأخير، وأولوْها جلّ عنايتهم.
- إن أبا السّعود في كتابه المسمى بـــ"إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" من المفسرين الذين اهتموا كثيرا بالنّاحية البلاغيّة، ومنها: التقديم والتأخير في القرآن الكريم.
- إن أبا السعود قد استعان في الكشف عن أسرار التّقديم والتّأخير بتمكّنه من علوم البلاغة.
- تعدُّ أسرار التقديم والتأخير في تفسير أبي السعود امتدادًا لمنهج عبد القاهر الجرجاني في نظرية النّظم في كتابه "دلائل الإعجاز".
- تفرَّد أبو السعود على الزمخشري، والرازي، وأبي حيان، وغيرهم من المفسرين الذين سبقوه في كثير من المباحث في أسرار التقديم والتأخير في القرآن.
- تأثر المفسرون الذين جاؤوا من بعده بتفسيره؛ ومنهم ابن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير"، والألوسي في كتابه "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني".
- من أسرار التقديم والتأخير في تفسير إرشاد العقل السليم: الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، والتخصيص، والتقديم لكونه أدخل في المدح، والإيذان بالمساواة، وتقديم الأسبق في الوجود، وتقديم الأفضل، وتقديم طريق تلقي الوحي، وتقديم الأسبق في الوجود، والتقديم لكونه أنسب، ومراعاة المقارنة، وتعجيل المضرة، ومراعاة للسياق، والتقديم لإظهار كمال العناية، وتقديم ما هو ظاهر.

المصادر والمراجع

- الألوسي، محمد بن عبد الله. (1415هـــ). **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. بيروت: دار الكتب العلمية.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر. (1415هـــ/1995م). **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن. (1995م). **دلائل الإعجاز**. بيروت: دار الكتاب العربي.

- أبو حيان، محمد بن يوسف. (1422هـ/2001م). **البحر المحيط**. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الذهبي. محمد حسين. (2005م). التفسير والمفسرون. القاهرة: دار الحديث.
- الرازي، محمد بن عمر. (1421هـ/2000م). **مفاتيح الغيب**. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الزمخشري، محمود بن عمر. (1407هـ). **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. ط3. بيروت: دار الكتاب العربي.
- الزملكاني، عبد الواحد بن عبد الكريم. (1383هـ/ 1963م). **التبيان في علم البيان المطلع على إعجار القرآن**. أحمد مطلوب وخديجة الحديثي (محققان). بغداد: مطبعة العاني.
- السامرائي، فاضل صالح. (1427هـ/2006م). **التعبير القرآني**. ط4. الأردن: دار عمار.
- أبو السعود العمادي، محمد بن محمد. (د.ت). **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**. د. ط. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- سيبويه، عمرو بن عثمان. (1408هـ/1988م). **الكتاب**. عبد السلام محمد هارون (محقق). ط3. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- طنطاوي، محمد سيد. (1993م). **تفسير الوسيط للقرآن الكريم**. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور. (1997م). **تفسير التحرير والتنوير**، د. ط. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع.
- عبد الكريم الخطيب، (د.ت). **التفسير القرآني للقرآن**، د. ط. القاهرة: دار الفكر العربي.
- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد. (1414هـ / 1993م). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. محمود الأرناؤوط (المحقق). بيروت. دار ابن كثير.
- القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد. (1418هـ). **محاسن التأويل**. بيروت: دار الكتب العلمية.
- لاشين، عبد الفتاح. (1402هـ/1983م). **من أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة)**. د. ط. الرياض: دار المريخ.
- المسيري، منير محمود. (1426هـ/2005م). **دلالات التقديم والتأخير في القرن الكريم**. القاهرة: مكتبة وهبة.